كتاب
تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

الطبقة الثانية

ويجب بعد ذكرنا ناصر الدين حسين واخوتهُ الخمسة ان نذكر اولاد عمهِ جمال الدين حجي اذ كانوا بني عمهِ ومعاصريهِ فالأولى ان يكون ذكرهم تابعاً لذكره وذكر اخوتهِ

ذكر الامير نجم الدين محمد ابن جمال الدين حجي بن محمد

وهو اوّل ولد جمال الدين وسَمِيُّ جدّهِ. كان قوي المنافسة حادّ الخُلق فنافر اباهُ وعقَّهُ وشقَّ عصاهُ ورحل الى عيناب وكان ابوهُ قد اشركهُ في الاقطاع فلمّا رأى منهُ ذلك أبطل شركتهُ وجعل اخاهُ شهاب الدين احمد موضعهُ شريكاً في الاقطاع. وكتب بذلك منشوراً من مضمونهِ أنهُ اقام عوضاً عن ولدهِ نجم الدين محمدٍ اخاهُ شهاب الدين احمدَ لسوء سيرة نجم الدين (74) وعدم شكر الناس لهُ

وكان نجم الدين قبل ان يرحل الى عيناب قد قام على اولاد علَم الدين معن وهم: سيف الدين غلّاب واخواهُ عبد المحسن وكرامة وكان سكنُهم باعبَيه تحت عمائر السلف الى جهة الغرب بشمال. فما برح نجم الدين محمد عليهم حتى رحل غلّاب واخوهُ عبد المحسن الى رمطون واما اخوهما كرامة فانهُ قاومَهُ وحلف انهُ ما يرحل عن وطنهِ

ولمّا استقرّ غلّاب وعبد المحسن في رمطون ورحل نجم الدين الى عيناب قصد في وقت من الاوقات ان يحرق رمطون فخرج ومعهُ عصبةٌ من الاوباش وتوجّه الى رمطون وكانت عنّتهُ في رمطون فسالتهُ الّا يحرق في رمطون شيئاً فحلف أن لا بدَّ من الحرق. فقالت لهُ: احرق هذا التنّور لتبرئة قسَمك. فاجابها الى سؤالها واحرق التنّور وعاد الى عيناب. (قلتُ) وربّما كان عمل نجم الدين محمّد المذكور هذه الاعمال في غيبة ابيهِ وعمهِ وزين الدين ابن علي لمّا سُجنوا تلك المدّة الطويلة في ايّام الملك الظاهر بيبرس. وفي هذه المدّة كان ناصر الدين حَدَث السنّ ما نشأ فخلا الوقتُ لنجم الدين وتمكّن من قصدهِ. والله اعلم

ونجم الدين المذكور هو الذي قتل القُطب (١ على ما قيل عنهُ من عامة الناس ولم اجد ذلك بخطّ احدٍ من الخلف. وسمعتُ الناس يقولون انَّ اباهُ واقاربَهُ اتفقوا على سجنهِ ببيروت وسُجن بها. وربما كان ذلك عقيب الفتوح لأنهُ لم يمكن ان يسجنوا مسلماً في بيروت وهي للفرنج. وبلغني انَّ بعض اقاربهِ ارادوا الفتك بهِ عند الإفراج عنهُ وأوقفوا الامر على مشورة ابيهِ فقال: انا لا أطالب بدمهِ احداً من (٧٥ خَلق الله ولكن لا يسعني عند الله ان آمر بقتلهِ. وكان الناس مع ذلك ينسبون نجم الدين الى الكرم والشجاعة والمروءة. وكان يعتذر عن سوء صنيعهِ ببغضتهِ للمرأة التي تزوَّجها ابوهُ عوض امهِ (٢

وعمَّر نجم الدين في عيناب عماراً وتزوَّج امرأة من ميسون وولد لهُ سيف الدين ابرهيم وشُكر عند الناس بحسن السيرة. وكانت وفاة نجم الدين نهار الخميس الخامس من شهر محرَّم سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٤ م) قتيلا مع اخيهِ احمد في فتوح كسروان بقرية نيبّه كما تقدَّم ذكرهُ (٣

واسماء اولادهِ سيف الدين ابراهيم وهو اكبرهم وجمال الدين يوسف وعماد الدين اسماعيل ونور الدين محمَّد وهو الصغير. وعاشت أمهم بعد ابيهم

ذكر اخيهِ الامير شهاب الدين احمد ابن جمال الدين حجّي

وهو ثاني ولد جمال الدين كان رجلاً عاقلا حسن الرأي والسياسة مشكوراً بين الناس تزوَّج بحسنات بنت الشيخ العلم المقدَّم ذكرهُ. قُتل مع اخيهِ كما مرَّ في واقعة كسروان وقد ذكرنا قتلتهما في ترجمة ناصر الدين الحسين ابن عمّهما. واسماء اولادهِ حسام الدين عبد القاهر وجمال الدين حجّي وفخر الدين عبد الحميد وأمهم بنت العلم

ذكر اخيهما الامير شجاع الدين عبد الرحمان ابن جمال الدين (٤

كان شجاع الدين راغباً في ما عند الله زاهداً في ما عند الناس وقام بالخلافة لابيهِ وسلك طريقهُ في المسالك الحميدة والزهد والقناعة والعبادة وكان عندهُ رصانة النفس ووطاءة الخُلق فكان بين الصغار كاحدهم وبين الكبار كاكبرهم فاق اهل زمانهِ بالعلم

١) راجع المشرق (١ : ٥٦٤ و ٧٠٨) ٢) المشرق (١ : ٥٦٥)

٣) راجع ذكر هذه الواقعة في المشرق (١ : ٣٢٨ و ١٠٤٤)

٤) جاء في حاشية للمؤلف: «كان يجب ذكر عبد الله بعد اخيهِ شهاب الدين احمد لانهُ ثالث ولد جمال الدين . وشجاع الدين هو الرابع وعبد الحميد الصغير وهو الخامس

والفضل (75) والحلم والادب قد ذكرهُ محمد النزّي في المقامات التي تقدَّم ذكرها فقال فيهِ: « وواسطة عِقدهم. ومحكُّ نَقدهم. وبركة عشيرتهم. وراس مشورتهم. وقطب فلك المعارف. وقدوة كلّ محقّق وعارف

شجاع الدين خير بني ابيهِ امامٌ رام في دنياهُ زهدا
تعبَّد خشية الرحمان طوبى لحرٍّ قد اتى الرحمان عبدا

حدَّثتني الجدَّة زوجتهُ المدعوَّة امّ نجم الدين وهي عاشت بعدهُ زمنًا طويلًا قالت: ما رأيتهُ غضبان قطّ. وحدثت عنهُ انَّهُ كان يغمض عينيهِ وقلَّ ما يفتحهما حتى يتسار الكتاب العزيز سَرْدًا على ظهر خاطرهِ وانَّهُ كان يتلوهُ في نهار واحد. وكان قد اتَّخذ عودًا متشعِّبًا يضع الشعب على جبتهِ وطَرَفهُ الى الارض يتوكَّأ عليهِ طلبًا للراحة ويجعل المصحف على الكرسي قدامهُ. وكان دأبهُ تلاوة الكتاب العزيز والعبادة

وحُكي عنهُ انهُ اجتمع يومًا بعلم الدين سليمان الرمطوني الاتي ذكرهُ ان شاء الله تعالى فجرى بينهما عتاب على امرٍ كان بينهما فقال علم الدين: ما أخوجك الى حرارةٍ في العقل. فقال شجاع الدين: انت احوج مني الى برودةٍ في الحكم. وكان علم الدين مشهورًا بقوَّة النفس والحدَّة والغلظة في الحقّ مع سيادةٍ ورئاسة. وشجاع الدين مشهورًا برصانة النفس ووطاءة الخُلق وكثرة الحلم والكرَم محبًّا للاجواد حنونًا على الفقراء رؤوفًا على المساكين وكان ينظم الشعر الرقيق (76) ... (1) فمن ذلك قولهُ (76) وقد الزمهُ اقاربهُ بسكنى بيروت وترك اهبيه:

اللهُ يعلمُ انَّ قلبيَ عندكم ولذيذ عيشي ما بهِ المامُ
أكلي وشربي قد تنغَّص بعدكم ما لم تسطِّر بعضهُ الاقلامُ
ياليت شعري هل تعودُ سعادةٌ كانت لنا وكأنها احلامُ
والشمل مجتمع بافضل سادةٍ سادوا الورى وكأنهم اعلامُ

ولهُ اشعار غير هذه واكثرها في الزهد والورع والاعتقادات الجيّدة ومحبَّة الاخوان والاصدقاء. ومدحهُ الناس بقصائد كثيرة منهم محمد النزّي في قصيدة ليست هي من المقامة (77) اوَّلها:

---

(1) في الاصل هنا مقاطيع شعريَّة مختلفة ضربنا عن بعضها صفحًا لضعف نظمها واغلاطها النحويَّة

حدّث عن السفح وكثبانه (١ وعن معانيه وعن سكّانه
ومنها: خيرُ اميرٍ امرهُ طاعةٌ (٢ لعلمهِ الاشيا واتقانهِ
وخيرُ عبدٍ سيّد في العُلى أخلص في طاعة رحمانهِ
الزاهد العابد والمرتجى ليسنهِ فينا وايمانهِ
صَدر صُدور الوقت في علمهِ وفضلهِ بل عينُ أعيانهِ
روحُ لجمع الغرب يحيا بهِ يستوطن المجدُ باوطانهِ
وان دجا خطبٌ مُلمٌ أضا بساطع من صُبح تبيانهِ (٣
اصلٌ زكيٌ فرعهُ مثلهُ كالغُصن غصن النَّبت او بانهِ (٤
عقلٌ غزيرٌ وحيا وافرٌ تراهُ كملا عند ريعانهِ (٥ (77)
يا زائرًا باب ابيهِ لقد فُزت من العلم بافنانهِ
لا زال هذا الغربُ شرقًا بهِ يشرقُ من شمس عُلى شأنهِ
اجري على مدحي لهُ دائبًا وهو على عادة احسانهِ

سكن شجاع الدين عمارة والدهِ جمال الدين حتي وهي اوّل ما عُمّر باعيه من بيوت الامراء وعُرفت ببيت شجاع الدين. تزوّج حسنات بنت الشيخ العلم زوجة اخيهِ شهاب الدين بعد وفاتهِ. ورُزق منها ولدًا تقيّ الدين الحسين وثلاث بنات صالحة. ومونة وزمرّد. ثمّ توفيت زوجتهُ فتزوّج بعدها شمسةَ المعروفة بامّ نجم الدين تزوّج بها في سادس جمادى سنة سبع واربعين وسبعمائة (١٣٤٦ م) ورُزق منها مؤمنة. وهي الامُّ (٦ رحمهم الله تعالى. وكانت وفاة شجاع الدين نهار الاحد رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع واربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م) ولم اقف لهُ على مَولد. وكانت وفاة المذكور في ايّام ناصر الدين الحسين ورثاهُ (78) بهذه الابيات (٧:

قد زرتُ قبرك يا ابن عمّ مسلّمًا ولهُ الزيارة من اقل الواجبِ
ولو استطعتُ حملتُ عنك ترابهُ ولطالما عني حملتَ نوائبي
ودمي فلو اني علمت بانهُ يروي ثراكَ سقاهُ صوبُ الصائبِ

١) هذه القصيدة وردت في تاريخ ابن سباط مصحّفة. فروى: «من الصفح وكثابيه»
٢) روى ابن سباط: طائعًا ٣) لم يروهِ ابن سباط
٤) رواية ابن سباط: ربّانهِ ٥) في ابن سباط: عقل زغير (؟)... عند. وعيانهِ
٦) لعلّ المؤلف اراد انّها امّهُ ٧) اقتصرنا بالقليل منها لكثرة اغلاطها وتصحيفها

لسفكتهُ اسفًا عليك وحسرةً وجعلتهُ بمكان دمعي الساكب

ورثاهُ بقصيدةٍ أخرى وامر ان تعلَّق على باب بيتهِ اولُها:

لقد اوحشتْ هذه المنازل بعدكم وكان عليها هيبةٌ ووقارُ

(ستأتي البقيَّة)

السفر العَجَب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل السادس عشر

اختفاء المجرمين

لقد تبيَّن مما سبق ذكرهُ ان المستر نسيب بعد ان رأيناهُ في نيويورك ممتلئًا من عواطف الشفقة والانسانيَّة ومنقذًا من مخالب الموت احد ابناء وطنهِ الذي طوَّحت بهِ الاسفار الى ارض غريبة لم يكن غير قاتل وسفَّاك دماء. غير ان الحقيقة لم تنكشف تمامًا لان كلَّ الظروف المصاحبة لهذا الحادث الفاجع ما برحت منشَّاة بسدول الاسرار والخفاء. امَّا زوجتهُ ميس اولري فذهب منها الغمُّ كلَّ مذهب لدى علمها ان والدها مات قتيلًا وشعرت كأنَّ صاعقة انقضَّت على رأسها فاصابها هيجان عظيم في دماغها اختطف حياتها في اقلّ من يومين

واما المستر نسيب فانهُ توارى عن الابصار ولم يكن بين يدي الشرطة دليل على ارتكاب جريمة القتل سوى تلك الرسالة الحكيَّ عنها والملطخة بالدم وكان قد اتى بها ضمن ظرف الى دائرة الشرطة رجل مجهول وألحقها ببعض بيانات وجيزة لم يفهم منها رجال البوليس شيئًا لكونها مكتوبة بعبارة انكليزيَّة رديئة وخطّ اردأ. ولم يكونوا يعرفوا ذاك الرجل المجهول وغاية ما يتذكرونهُ من امرهِ انَّ شخصًا اصفر اللون عريض الكتفين قوي اليدين وافاهم ذات صباح فشاهدهُ احدهم قد وضع رسالة في صندوقة التحاير ثم اختفى وكان هذا آخر العهد بهِ. ولذلك لم يكن احد منهم يعرف اسمهُ او غرضهُ من كشف الجريمة ومن ثمَّ خاضوا في التقادير المختلفة وظنوا الظنون العديدة فتارةً يقولون انهُ شريك في القتل مدفوع الى الاقرار بوخز ضميرهِ وحينًا انهُ يريد الانتقام من نسيب لانهُ لم يوفهِ المبلغ الذي وعدهُ بهِ لقاء القتل الى غير ذلك من التآويل